شخصية بارزة

ولي الدين يكن

١٨٧٣ – ١٩٢١

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

« ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فقدًا يتهافت عليه ابناؤهم ! »
(ولي الدين يكن)

ان في البشرية نفوساً مُترعة لا تفيض الّا اذا تألمت ، وقلوباً ظافحة لا تسيل الّا اذا جُرحت . من هذه النفوس الشاعرة كانت نفس ولي الدين ، ومن هذه القلوب الحسّاسة كان قلب ولي الدين ! جرّعته الحياة كأس الآلام حتى الثمالة ، وهبت به عواصف الطغيان حتى مهاوي الظلم . فشعر بالشقاء على جميع وجوهه ، وشعر بالحاجة الى الحرية في جميع مواطن الاستبداد . وكان له من مخيّلته الواسعة ، وبيانه الجذّاب ، ما رفع ذاك الشعور الى قمة الفن الرائع ، فبدا متجنّساً باسلوب شخصي ، ومذهب طريف . فكان شاعراً في كل مآتي حياته ، شاعراً في شخصيته البارزة من خلال آثاره جميعها .

حياته

شبابه (١٨٧٣ – ١٨٩٦)

اسرته – مولده

هو محمد ولي الدين بك ابن حسن سري باشا ، ابن ابراهيم باشا يكن . كان جدّه ابن اخت محمد علي باشا الكبير ، مؤسس الدولة المالكة في مصر ، فحمل لقب « يَكن » ، وهو كلمة تركية معناها « ابن الاخت » ، واورثها وُلده من بعده . والعائلة من اشرف البيوتات التركية عامة والمصرية خاصة ، اشتهرت سابقاً بابراهيم باشا المذكور ، واخيه محمد باشا ؛ وكان الاول سر

عسكر اليمن ، والثاني سر عسكر الحجاز في عهد محمد علي ؛ واشتهرت بعد ذلك بعدد غير قليل من كبار الساسة المصريين.

اما ولي الدين فوُلد بناحية السليمانية من الاستانة سنة ١٨٧٣ . وكانت امه من عائلة شريفة ايضاً ، وهي بنت احد امراء الجراكسة . فاكتنفه نبل الاصل من الطرفين.

في مصر : وفاة ابيه (١٨٧٩) – دروسه

ولم يلبث والد ولي الدين ان قدم الى مصر مع عائلته . وعهد في تعليم ولده الى معلم خاص اخذ يلقّنه مبادئ العربية. على ان الاب لم يتمتّع طويلاً بنجابة ابنه ، فتوفي والولد لا يتجاوز الست سنوات. فكفله ، واخوته ، عمهم علي حيدر باشا يكن ، ناظر المالية المصرية اذ ذاك. وكان الخديوي محمد توفيق باشا قد أسس في عابدين مدرسة خاصة لتعليم ابنيه وبعض ابناء امراء مصر ووجهائها ، وعيّن بها الاساتذة من رجال العلم والادب المشهورين ، وسماها « مدرسة الامجال » . فدخلها ولي الدين واقام فيها مدة يتلقّى ، مع العربية والتركية ، مبادئ الانكليزية والعلوم . وشاء درس اللغة الفرنسوية فطلبها في مدرسة مارسيل العالم الفرنسوي ، ثم دخل المدارس الاميرية . وما زال يتابع دروسه ، بعد خروجه من دور التعليم ، حتى اتقن العربية والتركية ، واحكم الفرنسوية ، والمّ بالانجليزية واليونانية .

كتاباته الاولى – اولى وظائفه

وكان له ولع فطري بالكتابة ، فانشأ ، وهو في دون العشرين ، يحبّر المقالات القصيرة في الجرائد المصرية ، تارة يخوض في الأدب ، وطوراً في السياسة ، وحيناً في الاجتماع . اما الجرائد التي خصها بمقالاته الاولى فهي « القاهرة » لمحمد بك عارف المارديني ، « والنيل » لحسن حسني باشا الطويراني الذي اخذ عنه ولي الدين علم المنطق ؛ ثم اتفق مع يوسف بك فتحي واصدرا جريدة « المقياس »[1] . وكان بعض انسبائه ، ومنهم شفيق بك منصور يكن ،

(١) المقتطف : ابريل ١٩٣١ ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦

يريدون ان يصرفوه الى وظائف الحكومة ، عن طريق الصحافة التي قد تهوّره ، وهو فتى بعد . فشغلوه في خلال ذلك ، اولًا بوظيفة في نيابة مصر الاهلية ، ثم بالقسم الاجنبي في المعيّة السنية سنة ١٨٩٣

بين الاستانة ومصر (١٨٩٦ــ١٩٠٢)

في الاستانة

كانت الاستانة مسقط رأس ولي الدين فاحبها كثيرًا وحنّ اليها طويلًا . وكانت اولى زياراته لها ، بعد غربته ، في سنة ١٨٩٦ ، وقد انعم عليه السلطان عبد الحميد بالرتبة الثانية . وكان فيها عمه محمد فائق بك يكن ، احد اعضاء مجلس الشورى ، فاقام عنده نحو السنة ، اغنى مخيلته ، في اثنائها ، بمناظر فروق الفتانة التي سوف يتذكّرها في جميع مواقفه ، سعيدًا كان فيهنيها او تعيسًا فيبكيها .

في مصر : جريدة « الاستقامة »

وفي سنة ١٨٩٧ ، عاد الى مصر ، وقلبه يلتهب غيرة على اصلاح بلاده ، وتقويم ما رآه من الاعوجاج في سياسة العاصمة ، فانشأ فيها جريدة ودعاها « الاستقامة » واندفع يبسط فيها بجرأة واخلاص ، كلّ ما كان يراه صائبًا من الآراء ، ونافعًا من الاقتراحات . ولكن تلك المقالات كانت اخلص من ان لا تثير حفائظ الباب العالي ، فمنعتها الحكومة في ولاياتها . فاوقفها مرغمًا ، وودّعها بقصيدة رائعة نشرها في جريدة « المشير » سنة ١٨٩٧ ، منها :

فان مبلغٌ عني الغضابَ الألى جنوا ... باني امرؤ ما ان اخاف غضابا
اذمّ فلا اخشى عتابًا يُصيبني ... وامدح لا ارجو بذاك ثوابا !
على مَ أحابي مشرًا انا خبرُهم ... ومثلي ، اذا حابى الرجال ، يُحابى ؟

. . . .

ولما غدا قولُ الصواب مذمّمًا ... عزمتُ على ان لا اقول صوابا
فجافيتُ اقلامي ، وضمت «استقامتي» ... ورحت ارجّي للسلامة بابا ! (١

على ان احتجاب جريدته لم يمنعه الخوض في السياسة العثمانية ، فتابع الكتابة في جريدة « المشير » المذكورة ، وجريدة « المقطم » ، وجريدة « القانون الاساسي » لمحمد قدري افندي ، وكان يصدرها بالعربية والتركية

(١) ديوانه ، ص : ٤١

في الاستانة ايضاً

وفي السنة التالية ، سافر الى الاستانة مرّة اخرى ، فوُظف فيها عضواً في الجمعية الرسومية الجمركية . ولم يلبث ان انتقل منها الى عضوية مجلس المعارف الاعلى . على ان ماضيه كان اشدّ سواداً في نظر رجال عبد الحميد من ان يعتقدوا فيه الاخلاص لذاك العرش القائم على أسس الاستبداد . فلم يزالوا يبثون عليه العيون حتى ظنوا انه على صلة بالاحرار القائمين خارج السلطنة ، وان عنده كتباً واوراقاً من شأنها النيل من شخص عبد الحميد او من حكومته

في المنفى (١٩٠٢–١٩٠٨)

في سجن الاستانة

فارسل شفيق باشا ، ناظر الضابطة ، من يفتش منزله في ٢ كانون الثاني ١٩٠٢ . فروّعوا امرأته النفساء ، وامه ، واولاده الصغار ، واخذوا كل ما راق لهم من الاوراق والمستندات ، وتركوه حليف اليأس والاضطراب [1]

ولم تمرّ اربعة ايام حتى قُبض عليه في احد شوارع الاستانة ، وكان ذاهباً في طلب دواء لامرأته . فألقي ، دون محاكمة ، في سجن ، ثم في سجن آخر اشدّ ضيقاً من الاول .

في سيواس

وبعد ان قاسى عذاب الظلم ، وعذاب البعد عن اهل بيته ، في هذا السجن الجديد ، نُقل الى باخرة ظنها ستلقيه في البوسفور ، ولكنها سارت به الى حيث لم يعرف الا بعد مدّة . فأُخبر ان الارادة السنية صدرت بنفيه الى سيواس ، احدى ولايات الاناضول . فوصل اليها يوم الجمعة في ١٤ شباط سنة ١٩٠٢ ، بعد سير حثيث في الاودية والجبال ، وسط العواصف وتحت الثلوج .

كل هذا واهله لا يعلمون عن مصيره شيئاً ، حتى هدأ روعه اثر وصوله الى منفاه ، فأبرق يخبرهم ويستقدمهم اليه .

وكان من غرائب الحكومة الحميدية انها تستخدم المنفيين في وظائفها كما

١) تفصيل ذلك في المطوم والمجهول ٢ : ١١–١٧

تشاء ، وتنفي متوظفيها كما تحب. وهكذا كان فان ولي الدين المغضوب عليه ، المنفي بعيداً عن بلاد ، ما برح من ارباب الحكومة التي نفته ، فانه حالَ وصوله استلم امراً بتعيينه معاون مكتوبجي الولاية بمرتب شهري قدره ١٥ ليرة ذهبية كان يقبضه في حينه اذا صدرت الارادة السنية بذلك ، والا فينتظر الشهر والشهرين والثلاثة.

اقام في سيواس نحو السبع السنوات ، قاسى في خلالها ، ولاسيما في اولها ، انواعاً من العذاب العقلي تحطّ من همم الجبابرة. وكأن القدر اراد زيادة تجاربه ، فجمع الى ذلك ألم أضرسه ، ومرض كبير ابنائه بالحمى التيفوئيدية ، وانقطاع المواصلة مع اصحابه المتخلفين . الا انه كان له بعض العزاء بوجود امه وامرأته واولاده معه ، وبما لاقاه من اسباب التسلية والمؤاساة في اهل سيواس عامّة ، وفي الاجانب المقيمين فيها خاصة مما احدث في نفسه ذكرى طيبة فخلّدها في كتابه « المعلوم والمجهول »

واذ أعلن الدستور ، سنة ١٩٠٨ ، خرج من ذاك المقرّ . فرجع الى الاستانة ، يتفقد شؤونها ، ويرى ما آلت اليه مدينة الجمال التي كان لها في قلبه مركز خاصّ . ولكن لم يطل الاقامة فيها بل فارقها الى مصر.

في مصر (١٩٠٨–١٩٢١)

العود الى دولة القلم

خلص ولي الدين من دولة الظلم ، فعاد الى دولة القلم ، وقد ظنّ ان الحظ بسم لبلاده على اثر اعلان الدستور ، فلم يغرّه هذا الامل طويلاً. وكان ينتظره في مصر اصحاب ومعجبون ، فاحتفوا به ، واقاموا له حفلةً ادبية تهنئة له برجوعه سالماً . اما هو فتابع نشر مقالاته في كبريات الجرائد « كالمقطم » ، و« الاهرام » ، و« المؤيد » ، و« الرائد المصري » ، ومجلة « الزهور ». وقد تولّى مدةً رئاسة تحرير جريدة « الاقدام » لصاحبتها الاميرة الكسندره اثرينوه دي ڤيزنيوسكا .

وكان له متسع من الوقت ، في تلك الاثناء ، فجمع تذكارات ما قاساه

في السنين الغابرة ، ونشرها في مجلديه المشهورين باسم « المعلوم والمجهول » وانتخب قسماً من مقالاته في المقطم نشرهـا بعنوان « الصحائف السود » ، ثم نشر مجموعة اخرى بعنوان « التجاريب » ، وكان قد عرّب « خواطر نيازي » فنشرها ايضاً في هذه المدة.

في الوظائف : « بسمة الزمان »

وبعد اعوام قليلة عُيّن في وزارة الحقّانية . فارتاح الى عمله . وظلّ في ذاك المنصب حتى اواخر سنة ١٩١٤ . فعيّنه السلطان حسين كامل سكرتيراً عربيًا لديوان كبير الامناء ، واحبه كثيراً ، وانعم عليه بوسام النيل . فشعر ولي الدين بالسعادة ، ولعلّ ذلك كان لاول مرة في حياته ! واعتبر تلك الحياة الجديدة « بسمة بسمها الزمان بعد طول عبسه » كما كتب الى صديقه الشيخ انطون الجميل بُعيد تعيينه . ولكنه ، لكثرة ما تعوّد الشقاء ، خاف ان تحول الحوادث بينه وبين التمتع بهذه البسمة[1] .

مرضه

وكان خوفه في محله . فان المرض اخذ يدبّ الى صدره ، وجعل الزبو يقطع عليه انفاسه ، فينغّص ساعات نهاره ، ويقضّ مضجعه اذا شاء الاستكانة في الليل . وقد كتب الى صديقه المذكور في ١٢ شباط ١٩١٨ يصف داءه وصفاً يشفّ عما كان يقاسي جسمه من الالم ، وخصوصاً عمّا كان يُلمّ بنفسه من الجزع واليأس . قال :

« اني في يأس شديد من زوال هذا المرض . . . الذي عجز الطب عن دفعه ، وهو المسمى emphyzème (الزبر) . اذا دجا الليل تكاثرت مخاوفي ، فلا يغمض جفناي فرقاً ، لاني لا اخشى اغتيالة الا وانتبه صارخاً مذعوراً ، اذ تنقطع انفاسي ، ويشتدّ اضطراب قلبي ، وتبرد يداي ورجلاي . فاختلج مكاني ، واتلوّى تلويّ الافعى أُلقيت في النار . اريد تنفساً استعيد به ما يوشك ان يذهب عني من الحياة فلا اجده . حتى اذا بلّغني الرمق ، واضكني التعب ، عاودتني انفاسي شيئاً فشيئاً ، وذهبت النوبة على ان تعود بعد ساعة او ساعتين . ومصير هذا المرض معلوم ، وهو مذكور في كتب الطب لم يختلف فيه طبيبان .

« لا ادري أمن الموت ، وما انتظر من احواله ، يزداد جزعي ؟ وما تطلع عليّ شمس يوم

---

١) مقدّمة ديوانه ، بقلم الشيخ انطون الجميل ، ص : ٨

الا وزادتني قرباً من قبري. وا لهفي على آمالٍ ثوت آلاماً ! ووا حسرتي على ايام عمر ما ضحكت لي مرة الا جعلت دموعي لها ثمناً ! أهذه عاقبة الصبر التي أطالت انتظارها ؟ ما اكثر ضلال الحكماء ! وما أكبر غش القدماء !... » (١)

واذا اضفنا الى هذه الآلام الجسدية المبرّحة ، آلاماً نفسية ايسرها ناتج عن المرض ، وغيرها ناتج عن مصائب عائلية تراكمت عليه في سنيه الاخيرة منها موت ثاني اولاده فجأة بلمس سلك كهربائي ، وهو في السادسة عشرة من العمر ؛ ووفاة والدته وشقيقته وكان يحبهما حباً شديداً (٢) ؛ امكننا القول ان حياة وليّ الدين كانت مأساةً تامة ، وايامه حلقات فواجع « ما ضحكت له مرة الا جعلت دموعه لها ثمناً » !

وفاته (٦ اذار ١٩٢١)

وما زال يشتدّ عليه المرض حتى أُجبر على ترك القصر السلطاني سنة ١٩١٩ ، فانزوى في بيته ، ثم قصد حلوان مستشفياً حيث ختمت سلسلة احزانه ليلة الاحد في ٦ اذار سنة ١٩٢١ ، بعد ان ترك قطعاً من فؤاده متناثرة على الاوراق ، منها هذان البيتان وُجدا الى جانب سريره :

يا جسداً قد ذاب حتى انمحى الّا قليلاً عالقاً بالشغاف
اعانك الله بصبرٍ على ما ستعاني من قليل البقاء !

دفنه – وتأبينه

طالما تاق ولي الدين ، في مصائبه المتعدّدة ، الى رقدة يستريح الجسم فيها في « قرافة الامام » بمصر ، وفيها مدفن العائلة اليكنية . فحقق الله مشتهاه ، فدُفن في « القرافة » المذكورة بين اهله الكرام.

وبعد اربعين يوماً ، اجتمع لتكريم ذكراه فريق من اصدقائه الادباء . فاقاموا حول قبره حفلة تأبينية . وكان امل الاصدقاء كبيراً بان جمهور حملة الاقلام في مصر يلبّون دعوة هذا الواجب فيكفرون باحيائهم ذكرى وليّ الدين عما لحق به من الاجحاف حال حياته . ولكن خاب الامل ، فلم يؤبنه

١) الكتاب المذكور ، ص ٨-٩
٢) مي : الصحائف ، ص ٨٩

الا نفر قليل منهم ابراهيم رمزي ، وخليل مطران ، والشيخ انطون الجميل ، وجورج طنوس.

أوَ لم يكن وليّ الدين يتوقع مثل هذا الاعراض حين وصف موت الادباء في الشرق ذاك الوصف البليغ ، فقال :

« يموت ادباؤنا ، وتطفأ انوار المعاني في عقولهم ، وتبقى بيوتهم خالية ، واجداثهم دائرة . . . »[1]

على انه ، وان قصّر ادباء مصر في ايفاء الفقيد حقه ، فلقد كان له من جرائد العالم العربي قاطبةً مراث وتآبين. وسيكون له من ادبائنا جميعاً محبون ومريدون.

شخصيته

نشأ وليّ الدين في بيت شرف وإباء ، فكان شريفاً ابيّاً طول حياته . وكان له من لطف الحسّ ، ودقة الملاحظة ، وسرعة التأثر ما جعله شاعراً في كل ما خطه ، سواء في ذلك النظم ، وهو شعره الموقع ، والنثر ، وهو شعره المرسل.

وقد خصّه الباري بقوّة بدنية ، في عنفوان شبابه ، وجرأة على العظائم لا يقف في وجهها حاجز ، كما قد يشهد ذاك الشرطي الذي اعترضه في سيره ، فعاجله ولي الدين « بضربات كندف القطن ، فالقاه[2] » وكما قد يشهد ايضاً ذاك المتحرّف وقد « اكفأه على مكتبته واهوى بين كتفيه بلكمات »[3] .

الا ان مقاساة الاتعاب ، وتراكم الرزايا ، وتباريح المرض اضنكت جسمه ، فافقدته قواه ولكنها لم تفقده جرأته ، وطبع الاسى على وجهه آثاره فذهب بنضارته ، ولكنه لم يذهب بظرفه وطلاقته . بل ظلّ ولي الدين ، على رغم الواجع ، لطيف المحضر ، حلو الحديث ، ظاهر التجلّد . واننا لنخطئ اذا حسبنا هذا التجلد نتيجة الاستكانة للذلّ ، او التسليم المطلق لمشيئة الله . لم

١) التجاريب ص ٥٥ ٢) المعلم والمجهول ٢ : ٢٤
٣) الكتاب المذكور ٢ : ٢٧

يكن شيء من ذلك ، لأن شاعرنا كان اوفر عصبيّة ، واسرع تلبية لدواعي ثورات النفس ، واكثر تضجّرًا من ان يدرك احدى هاتين الحالتين . انما كان تجلّده نتيجة قوّة خاصة به تزّعله للشعور بادقّ العواطف ، ولكنها ، في الوقت نفسه ، تضبط قلبه ان يظهر متأثرًا بتلك العواطف ؛ تبسط لديه سبل الخلاص من مأزق حرج ، ولكنها تربأ به عن طرق ابواب التذلل والاستطاف للوصول الى تلك السبل ؛ تصوّر امامه بطريقة شفّافة هول الخطب المقبل ، ولكنها تمنحه من رباطة الجأش ما يوقفه ثابتاً تجاه ذاك الهول ، شامخاً على تراكم الرزايا ، مجابهاً صروف الدهر مجابهة القرن لقرنه . الا وهي الانفة ، ذاك السلطان الجبار الذي يسخر لارادته النفوس الكبيرة فيرفع مآتيها عن مآتي العامة ، ويسمو بعواطفها على عواطف السوقة . من هذه « النفوس الساكنة الى الاحساب الزكية » كانت نفس وليّ الدين ، فوُجدت بحكم الطبع مسخّرة لسلطان الانفة يسيّرها حيث يشاء ، على نحو ما صوّره الكاتب نفسه في مقال «الانفة» [1] .

وكان من نتيجة انفته صفة قد يستغربها الناس لاول وهلة ، وهي بغضه الشديد للكبرياء . ولا عجب ! فالكبرياء أنفة زائفة او ادعاء يقوم به ارباب النفوس المنحطة لتقليد اشهر صفات النفوس السامية . وما فتئ اصحاب الصفات الحقيقية يكرهون من يقلّدهم في صفاتهم فيظهرون بمظاهرهم ، وهم في الحقيقة خلو من ذلك . فالمُخلص الحقيقي يكره المماق ، والمتدين الحقيقي يكره المرائي الخبيث ، والانوف الزكي الحسب يكره المتكبر عن عجب وحداثة نعمة

اما اذا كانت الاهواء مما لا يضير الانفة ، ومما لا يساوي بين صاحبها ومن لا يفهمون الانفة ، فلا بأس بها ، ولا لزوم للتحفظ في اظهارها . وعليه كان وليّ الدين ، في ما خلا ما قد يمسّ أنفته ، شديد الميول مندفع الاهواء ، سواء في ذلك حبه وبغضه ، وتقرّبه ونفوره . فهو لا يتحرّج في حبّ ما يكرهه الجمهور ، ولا يتكلف في التصريح ببغض ما قد تجبره آداب المجالسة على اعتباره . فهو صادق في كل ما يقول ، مخلص في كل ما يشعر به .

وقد وافقت هذه الصراحة عنده نزوعاً طبيعياً الى الحرية والاستقلال ،

---

(١) اطلبه في الروائع ٢٣ : ١٦ .

قاده في جميع ظروف حياته الى الخروج عن المألوف فلم يجاز بالخير في ذلك . خرج ، في ما خصّ الدين ، على عادات قومه فتزوّج سيدة مسيحية يونانية ، فآب بغضب اهله ؛ وخرج ، في ما خصّ السياسة ، على سلطانه محبّرًا المقالات ضدّ ظلمه واستبداده ، فربح السجن والنفي سبع سنوات . وخرج ، في ما خص المجتمع ، على تقاليد لم تتفق معها صراحته فنبذها وجاهر بنبذها ، فكثر اعداؤه . وخرج ، في ما خصّ الادب ، على قواعد النظم المقررة ، وقوالب النثر القديمة الى محيط الابتكار والطرافة فجمع عليه سخط المحافظين . ولكنه لم يكن ليبالي بكل ذلك ، وهو القائل رادًا على من شاء تضييق حريته :

« يريدون ان اكتب ما يريدون ، وأريد ان اكتب ما اريد . »

وهكذا كان ! فقد كتب ما أراد لا ما ارادوا ، وهو في كل ذلك :

« يذمّ فلا يخشى عقابًا يصيبه ويمدح لا يرجو بذاك ثوابا »

« لا يبالي الثناء ، ولا يبالي الهجاء . وانما يبالي ان يصدق فيه احدهما . »

وما همّه من كل ذلك ؟ اليس له من نفسه الكبيرة جيشٌ يتقاصر عنه جيش عبد الحميد ! أوَ ليس له من ادبه غنى لا يحسب غنى الارض شيئاً الى جنبه ! أوَ ليس له من حرّيته وأنفته صرح تصغر امامه صروح المعالي جميعها ! كيف لا ، وهو القائل بعد ان جاز الاربعين من العمر :

ترقّدت في وصل المعالي جميعها ومن يطلبها كالطلابي يزهدِ
وبتّ ، تساورت في فؤادي مناهجٌ تؤدّي لغاض ، او تؤدّي لسؤددِ
واني في بيت صغير مهدّمٍ كاني في قصرٍ كبيرٍ مشيّدِ
غنا الله عن قومٍ اتاني غدرهم فربّ سيءٍ لم يسؤ عن تعمّدِ
تركت الغنى ، لا عاجزًا عن طلابه ، واترلت نفسي من منازل مجتدي
وهذي بحمد الله مني براءةٌ فيا افق سجّلها ، ويا انجم اشهدي !

وان من يصل الى هذه الدرجة من الاعراض عن ترفّات العالم فتتساوى في فؤاده المناهج المتباينة السبل حتى المتناكسة ، لحقيقٌ بان يكون شاهدَ الحياة من قمة انفته العالية التي الانت التجاريب من حدّتها وخففت من نشزاتها الفتية ، فاصبحت تشفق على الناس ، بعد ان كانت تزدريهم . ولكن لا تزال شفقتها ممزوجة بشيء من الترفع يدفعها الى التجرّد عمّا يلتهون به من الحطام كالمال

والوظائف ، والى الاعراض عن عوادلهم وخصوصاً عن مبادلتهم الشفقة بالشفقة . فاذا حنّت الى شيء لا يكون حنينها الى تعزية بشرية ، بل الى « دارات القرافة » فتقول :

« أحنّ الى تلك المراقد في الثرى ولو استطيع اليوم ، لاخترتُ مرقدي !
« فانزلت جسمي منزلاً لا يظنّه يكون بعيداً عن أعادٍ وحُسّدِ
« وما يتمنى المرء في ظلّ عيشةٍ مُرّ لاحرارٍ وحلو لاعبدِ ! » (١)

هذا ولي الدين بعد ان نالت منه الخطوب والسنون ، فأثّرت في اندفاعه . وأثّر فيه خصوصاً انكسار كبار اعدائه ، وفي مقدّمتهم السلطان عبد الحميد ، فلم يبقَ امامه ذاك النمر المتعطش الى شرب الدماء ، فيحاربه الليل والنهار ويشحذ قلمه في سبيل الذود عن مظلوميه . اسقط عبد الحميد ، وتنفس العثمانيون الصعداء ظانّين ان قد انقضى حكم السوط

وابو السباط « يلديز » ذهبا

فالقى شاعرنا سلاحه مدّة حتى تعالاه الصدأ ، وكاد يضعف همته خلوّ ساحة النزال من المبارزين .

اما عصرٌ كان « لليث شباة وظفر » ، فقد كان لولي الدين « شباة وظفر» ايضاً ، يدافع بهما عن فروق ،

وفي العيون ازورارٌ وفي الجوانح ذعرُ !

حتى تقهقر الليث :

فاضطرّ لصالح رغماً ومن مَنى يضطرُ
(واغتاله) بعدُ غدراً وشيمة النذل غدرُ ! » (٢)

هذا المظهر هو احقّ مظاهر ولي الدين بالدرس ، واشفّها عن شخصيته العجيبة . كيف لا وقد تجمّعت في كتاباته هذه السياسية كل ما في عقليته من حرية في الميل ، واستقلال في الفكر ، وحدق في العاطفة ، تُقرن الى عصبية في المزاج ، وتحمّس في الاندفاع ، ظهرت آثارهما حتى في الجمل والتعابير فغدت متقطعة الاقسام ، هائجة النبرات ، متصادمة الالفاظ ، ينبض بها القلب ألماً فيبرزها دفعات دفعات كنبضاته السريعة . اضف الى ذلك قوة في الحجة وبلاغة

١) الديوان ، ص : ٨٦-٨٥ ٢) الديوان ، ص : ٣٥-٣٦

في المنطق ، واذا بك كدت تستوفي تحديد شخصية ولي الدين الادبية . فلا يبقى عليك الا معرفة مفعول مخيلته .

وهذه القوة لا تقل تأثيرًا عن عقله وشعوره . فهي التي ترفع امام عينيه حجب الاسرار فيرى مواقف المظلومين ، ومصارع الابرياء . ويصورها بتلك البلاغة الفائقة ، وذاك الايجاز الفني . وكأن الطبيعة نفسها تساعده على النيل من النفوس الحساسة فتمنحه اروع ما في كنوزها من مشاهد يجعل فيها حوادث ابطاله : تمنحه الليل البهيم بما يُثيره من الفواجع البكماء ، وتمنحه الشتاء القاسي بما يحمله من الوحشة والسكون ، وتمنحه الخضم المضطرب بما يهيجه من الرهبة والاسى . فتجتمع له انواع الدياجي من ظلمات الليالي الى ظلمات البحور الى ظلمات القبور ، فيقضي البريء غرقاً في « خليج البوسفور في احدى ليالي الشتاء ،

في ليلة ليس بها كوكبٌ كانما مشرقها مغربُ
يعمي سوادًا كل ما بينها فتحتها وفوقها غيبُ »[1]

ويموت « مظلوم » شهيدًا في « ليلة تضيع في معاقد ظلمائها انفاس المكربين كانها ذوب الحزن او نسج الاسى . » وقد جاش البحر ، وطارت عاصفة « اخذت قطرات الغيث تسح على اجنحتها »[2] ويخمد السم انفاس الفتاة البريئة « تحت ليلة من ليالي الشتاء ، متنورة النجوم ، حالكة الجوانب »[3] . ويُساق ولي الدين نفسه الى النفي « تحت ليل كأنه ظل الشقاء . »[4]

ولا غرابة في هذه المقاربة فالظلمات تدعو بعضها بعضاً ، والشاعر يختار منها ما يوافق عقليته حتى اذا برزت له الصورة تركها ، مصقولةً او غير مصقولة ، الى غيرها من الصور المبتكرة يضمها الواحدة جنب الاخرى حتى يتكامل له المشهد ، وهو يتنقل بينها قفزًا لا يكاد يهتم باحكام الصلة بين الاقسام لشدة ما يؤثر من الالوان والتصاوير ، وقد ذكرت عنه الآنسة مي انه قد يبرز معانيه صورًا كما في « غرد الطير » مثلًا فانه يكتب « غرد » كتابةً ويرسم « الطير » رسماً .[5]

---

١) الصحائف السود ، ص : ٧٢
٢) فصل كتب بالدموع
٣) الصحائف السود ص ، ١٥
٤) المظلوم والمجهول ٢ : ٥٣ - الروائع ٢٣ : ٦
٥) مي : الصحائف ، ص ٩٣

وكثيرًا ما كانت تتوسّع المخيلة بتفاعيل سحر الالوان والتصاوير في نفس الشاعر فتوجد منها مقارنات وتشابيه مبتكرة حتى الغرابة ، وغريبة احيانًا حتى الاضحاك . فهو لا يتراجع امام تشبيه طريف ، وان خرج عن الذوق او الاحتمال ، سواء في ذلك أكان الموقف موقف هزل ولهو ، او موقف جدّ وروعة . فبينما تراه يصوّر حالته برهبة وقد قُبض عليه وسيق امام المتصرّف ، اذا به يصف هذا المتصرّف بما يستضحك فيقول :

« اعوذ بالله !!! وجهٌ كاللبنة ، وعينان كالبصقتين ، ولحية كالطحلب ، وانف كالسواك . كل هذا يحمله عنق كخصر الهيفاء ، وجسد كزجاجة ماؤها صبغة اليود . . . »[1]

وبينما هو بيدي بكل جدّ ملاحظاته في اخلاق اهل سيواس ، اذا به يذكر نساءهم فيقول انهنّ « يشبهن عجبات ساجسات فضول مآزرهنّ كجماعات الاوزّ ، او كاقطاع الغنم . . . » ويتابع ذاكرًا سبب بعض عاداتهنّ : « هذا جهل لو انقلب علمًا لأصبحت غربان سيواس فلاسفة . . . »[2]

الى غير ذلك من تعابير وتشابيه خاصّة به شاء السير بها على اسلوب طريف حرّ مستقلّ ، مطلقًا حريته في ميدان الادب ؛ ممّا جعل خليل مطران يقول عنه :

لمجزه شعرًا ونثرًا شوارده ابت كلّ سجع في طريق سبنّد

على ان هذه الشوارد ، على ما فيها من غرابة ، هي التي تميّز تلك الشخصية المحبوبة في ولي الدين ، فتجعله قريبًا للقلوب على تباين نزعاتها ، جذّابًا للمطالعين على اختلاف رغباتهم ، وعلى الجملة هي التي تكوّن الكاتب الشخصي . اما مَن لا يرون فيها سوى آثار الخروج على التقليد الجاري ، فهؤلاء يصعب عليهم فهم وليّ الدين ، وقد صعب على وليّ الدين نفسه ان يُنير عقولهم ؛ فلم يكتب لهم . بل كأنه نظر اليهم بترفع حين اصدر ذاك الحكم الذي صدّرنا به درسنا هذا ، والذي نؤمل ان يتحقّق ، وهو :

« ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فغدًا يتهافت عليه ابناؤهم ! »

---

١) المراعم والمجهول ٢ : ٢٦ ٢) الكتاب المذكور ٢ : ١٥٦